منهج الرشاد لمن أراد السداد (٣)

رسالة كاشف الغطاء إلىٰ عبدالعزيز آل سعود

تحقيق: د. جودت القزويني

المقصد الثامن: في الشفاعة

الشفاعة ـ في الحقيقة ـ قِسمٌ من الدّعاء والرجاء، وليس من خواصّ الأنبياء والأوصياء، وليس لأحد على الله قبول شفاعته، وإنّما ذلك من ألطافه ومننه، ولا شفاعة إلّا بإذنه ورضاه، والأخبار فيها متواترة.

روى محمّد بن عمرو بن العاص، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: من سأل الله لي الوسيلة، حلّتْ عليه الشفاعة، رواه مسلم[1].

وعن جابر عن النبيّ ﷺ: من سمع الأذان ودعا بكذا، حلّت له شفاعتي يوم القيامة، رواه البخاري[2].

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الصلاة)، باب ١١؛ سنن أبي داود (كتاب الصلاة)، باب ٢٦؛ سنن الترمذي (كتاب المناقب)، باب ١؛ سنن النسائي (كتاب الأذان)، باب ٣٧؛ مسند أحمد بن حنبل (الباب الثاني)، الباب ١٦٨.

(٢) البخاري (كتاب الأذان)، باب ٨؛ وصحيح مسلم (كتاب الصلاة)، باب ١١؛ وسنن أبي داود (كتاب الصلاة)، باب ٣٦.

وعن عبدالله بن عبّاس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يُشْرِكون بالله شيئاً، إلّا شفَّعهم الله فيه، رواه مسلم[١].

وعن عائشة (رض)، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما من ميّت تصلّي عليه أُمّةٌ من الناس يبلغون مائة، كلّهم يشفعون له إلّاَ شُفِّعوا فيه، رواه مسلم[٢].

وعن جابر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: أُعطيت خمساً... (وعدَّ منها الشفاعة)[٣].

وعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ: أنا أوّل شافع وأوّل مشفع في يوم القيامة ولا فخر[٤].

وعن جابر عن النبيّ ﷺ: أنا أوّل شافع وأوّل مشفع. ونحوه عن أنس[٥]، وأبيّ بن كعب[٦].

وعن جبير بن مطعم، عن عثمان بن عفّان، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: يُشفَّعُ يوم القيامة ثلاثة (وعدَّ منهم الأنبياء).

وعن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ أنّ الشفاعة على مراتب الناس في القابلية[٧].

وعن عبدالله بن مالك عن أبيه، عن النبيّ ﷺ أنّه أتاني آتٍ من ربّي، فخيَّرني بين أن يدخل نصف أُمّتي الجنّة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة.

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الجنائز)، باب ١٩ (مَنْ صلّى عليه أربعون شفعوا فيه)، حديث ٥٩.
(٢) المصدر نفسه (كتاب الجنائز)، باب ١٨، حديث ٥٨.
(٣) المصدر نفسه (كتاب المساجد ومواضع الصلاة)، باب ٥، حديث ٣.
(٤) المصدر نفسه (كتاب الفضائل)، (باب ٢، تفضيل نبيّنا ﷺ على جميع الخلق)، حديث ٢٢٧٨.
(٥) المصدر نفسه (كتاب الأيمان)، باب ٣٣٠.
(٦) سنن الدارمي (المقدّمة)، الباب ٨.
(٧) سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤٣.

وعن عبدالله بن أبي الجذعاء، عن النبيّ ﷺ: أنّه يدخل الجنّة بشفاعة رجلٍ[١] من أُمّتي أكثر من بني تميم، رواه الترمذي والدارمي[٢].

وعن أنس قال: سألتُ النبيّ ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قلتُ: فأين أطلبك؟ قال: أوّلاً على الصراط، قلت: فإن لم ألقك؟ قال: عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك، قال: عند الحوض، فإنّي لا أخطئ هذه المواضع، رواه الترمذي[٣].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ أنَّ الله يقول بعد فراغ الشافعين من الشفاعة: شُفِّعت الملائكة، وشُفِّعَ النبيّون، وشُفِّعَ المؤمنون، ولم يبقَ إلّاَ أرحمُ الراحمين[٤].

وعن أنس عن النبيّ ﷺ أنّه يحبس المؤمنون يوم القيامة، فيقولون لو استشفعنا، فيأتون (آدم)، فيعتذر بخطيئتهِ، ثمّ (إبراهيم) فيعتذر بثلاث كذبات كذبهن، ثمّ (موسى) فيعتذر بقتل النفس، ثمّ (عيسى)، فيقول: لست هناك، فيقول الله تعالى بعد أن أسجد له: اِشفع تشفع... (الخبر وهو طويل)[٥].

وعن النبيّ ﷺ أنَّ مَلَكاً غُضِبَ عليه، فأُهبِطَ من السماء، فجاء إلى إدريس فقال له: اِشفع لي عند ربّك، فدعا له، فأُذن له في الصعود. وفيه دلالةٌ على الشفاعة في الدُّنيا. وستجيء في باب زيارة القبور أخبارٌ كثيرةٌ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَنْ

(١) في المطبوع: «بشفاعتي رجال».
(٢) الترمذي ٤: ٥٤١.
(٣) المصدر نفسه (باب صفة القيامة) ٤: ٥٣٧.
(٤) المصدر نفسه ٤: ٥٤١.
(٥) المصدر نفسه ٤: ٥٣٧.

زارني كنتُ له شفيعاً»[١].

وبيان الحال: أنّ (الشفاعة) إن كانت من قبيل الدّعاء، فيرجع طلبها إلى التماس الدّعاء من الأنبياء والأولياء، فتكون عبارة عن دعاء مخصوص لنجاة الغير، أو قضاء حاجته في أمور الدُّنيا والآخرة، فلا كلام ولا بحث في جواز طلبها من كلّ أحد، فهي كما لو سألتَ إخوانك الدّعاء. ويؤيّد ذلك أنّه لمّا سئل إدريس عليه السلام الشفاعة دعا.

ولا فرق بين الأحياء والأموات، فإنّا سنُبيِّنُ ـ إن شاء الله ـ تواتر الأخبار في أنّ الأموات يسمعون وينطقون، لكنَّ الناس لا يسمعون كلامهم. فالشفاعة بهذا المعنى لا غضاضة في طلبها، إذ لسنا في ذلك بمنزلة من قالوا لا طاقة لنا بعبادة الله، ونحن نعبد الأصنام، وهم يوصلوننا إلى الله.

وإنْ أُريد بالشفاعة منصبٌ أعطاه الله لنبيّه صلى الله عليه وآله وأوليائه، فيدفعون بالأذن العام عن الناس، بمعنى أنَّ الله أذن إذناً عامّاً لنبيّه صلى الله عليه وآله في إنقاذ بعض أهل العذاب من العذاب يوم يقوم الحساب، فبهذا المعنى تكون مخصوصةً في الآخرة.

ولا ريب أنّ المستشفع بالنبيّ صلى الله عليه وآله، والأولياء في دار الدُّنيا، يريد المعنى الأوّل.

فليتَ شعري ما الذي يُنْكَرُ من طلب الشفاعة، أمن جهة خطاب الموتى فذلك لا يوجب كفراً ولا إشراكاً، لو كان خطأ، فكيف لو كان صواباً، أو من جهة إسناد الأمر إلى غير الله سبحانه، وهذا أعجب من السابق، فإنَّ الدّاعي والساعي في حاجة أحد إلى مولاه لا يرتفع عن درجة العبودية، ولاسيّما إذا لم يحدث شيئاً إلّا عن إذنه؟!

(١) سنن البيهقي ٥: ٢٤٥.

ومن البديهة[١] أنّ العبيد والخدّام القائمين بشرائط العبودية والخدمة مع الأذن يُشَفَّعُوْنَ عند مواليهم في قضاء حوائج الناس، ولا يخرجهم ذلك عن العبودية والخدمة، بل هذا نوع من العبودية.

وفي أحاديث الشفاعة ما يدلّ على عموم الشفاعة في دفع المضار الدنيوية والأخرويّة.

وقد نقل عن الصحابة بطرق معتبرة أنّ الصحابة كانوا يلجأون إلى قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، ويندبونه في الاستسقاء ورفع الشدائد والأغراض الدنيوية.

روى البيهقي بطريق صحيح عن مالك الدارخازن عمر رضي الله عنه أنّه أصاب الناس قحط، فذهب رجل إلى قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: يارسول الله صلى الله عليه وآله إستسق لأُمّتك فقد هلكوا، فأتاه النبيّ صلى الله عليه وآله في المنام، فقال له: قل لعمر: قد سُقوا[٢].

وقد روي أنّ من رأى النبيّ صلى الله عليه وآله في نومه فكأنّما رآه في يقظته؛ لأنّ الشيطان لا يتمثّل به[٣].

وروى البيهقي بطريق صحيح أنّ رجلاً في أيّام عمر رضي الله عنه جاء إلى قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: يا محمّد استسقِ لأُمّتك[٤].

وروى الطبراني وابن المقري أنّهم كانوا جياعاً، فجاؤوا إلى قبر النبيّ، فقالوا: يارسول الله الجوع، فاشبعوا.

والغرض أنّ ذلك ظاهر بين الصحابة والسلف، ولا يتناكرونه أبداً، وحيث كان لا يزيد على سؤال الدّعاء، واتّضح في البحث الآتي أنّ الأنبياء والأولياء أحياء، لا يبقى كلام أصلاً.

---

(١) في النسخة المطبوعة: «الأمور البديهيّة».

(٢) البيهقي ٣: ٣٤٤.

(٣) صحيح مسلم (كتاب الرؤيا)، باب ١، حديث ١١.

(٤) البيهقي ٣: ٣٥٠.

الخاتمة

وأمّا الخاتمة، فتشتمل على أبواب:

الباب الأوّل
في حياة الأموات بعد موتهم

وفيه فصول:

الفصل الأوّل: في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله بعد موته

وأنّه يسمع الكلام ويردّ الجواب كما في حياته، غير أنّ الله حبس سمع الناس إلّا قليلاً من الخواص، ولا بُعد في ذلك بعد الإقرار بعموم قدرة الجبّار، فإنّ من أودع تلك النطفة روح الإنسان، قادر أن يودعها في أيّ محلّ كان.

ولا ينافي ذلك إطلاق اسم الموت عليه، وأنّ الحياة إنّما هي وقت البعث؛ لأنّ المراد أنّ عود تلك الأجسام على الحال السابق والكيفيّة السابقة، إنّما يكون في ذلك الوقت، وأنّ ظهور ذلك للناظرين، إنّما يكون في ذلك الحين، ولابدّ أن تتلقّ ما ورد عن النبيّ الكريم بأشد القبول والتسليم.

روي عن أُمّ سلمة (رض)، قالت: رأيت النبيّ صلى الله عليه وآله والتراب على شيبته، فسألتُه، فقال: شهدتُ قتل الحسين عليه السلام.

وعن ابن عبّاس أنّه رأى النبيّ صلى الله عليه وآله في المنام، وفي يده قارورة، فقلت: وما هذه؟ فقال: هذا دم الحسين عليه السلام[1].

وقال المبارزي: نبيّنا حيٌّ بعد وفاته.

---

(١) تاريخ ابن عساكر: ٢٦٣.

وقال شيخ الشافعي[١]: نبيّنا حيٌ بعد وفاته، فإنّه يستبشر بطاعات أُمّته، ويحزن من معاصيهم، وتبلغه صلاة مَنْ يُصلّي عليه.

وعن عليّ عليه السلام أنَّ أعرابياً جاء إلى قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: يارسول الله استغفر لي، فنودي من داخل القبر ثلاث مرّات: قد غفر الله لك[٢].

وروى أبو داود في مسنده، عن أبي هريرة، مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال: ما مِنْ أحدٍ يسلِّم عليَّ إلّا ردّ الله روحي حتّى أردّ عليه.

وذكره ابن قدامة من رواية أحمد أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: إنّ لله ملائكة سيَّاحين في الأرض، يبلغونني من أُمّتي السلام.

فعلى هذا لا فرق بين السلام من قربٍ، أو بُعد.

وعن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: مَنْ صلّى عليَّ عند قبري سمعتُه[٣].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: من صلّى عليَّ عند قبري، وكّل الله به ملكاً يبلغني[٤].

وروى ابن أوس مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنّ صلاتكم معروضةٌ عليَّ، قالوا: أوَكيفَ تعرض عليك وأنت رميم ؟! فقال: إنَّ الله حرَّم على الأرض لحوم الأنبياء[٥]. وهذا يعمّ الأنبياء (صلّى الله عليهم).

وروى الحافظ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: علمي بعد مماتي كعلمي في حياتي[٦].

---

(١) عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأسفراييني، ولد ونشأ في بغداد، ورحل إلى خراسان واستقرّ في نيسابور، ومات في أسفرائين. له مؤلّفات كثيرة.

(٢) كنز العمّال ١: ٥٠٦.

(٣) المصدر نفسه ١: ٤٨٨، الباب السادس في الصلاة عليه وعلى آله، حديث ٢١٩٧.

(٤) المصدر نفسه، حديث ٢١٩٦.

(٥) المصدر نفسه ١: الباب السادس، حديث ٢١٤١.

(٦) المصدر نفسه ١: الباب السادس، حديث ٢٢٤٢.

وعن النبيّ ﷺ: إنَّ الله وكّل ملكاً يُسمعُني أقوال الخلائق، يقوم على قبري، فلا يُصلّي عليَّ أحدٌ إلّا قال: يا محمّد (فلان) بن (فلان) يُصلّي عليك، صلّوا عليَّ حيثما كنتم، فإنّ صلاتكم تبلغني.

وعن النبيّ ﷺ: إنَّ أعمالكم تُعْرَضُ عليَّ[١].

والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى، وفيها دلالة على أنّه ﷺ يُخاطَبُ في مماته كما يُخاطَبُ في حياته، بل يظهر من بعض الروايات[٢] أنَّ كلامه يسمعه بعض الخواص.

أخرج أبو نعيم في دلائل النبوّة، عن سعيد بن المسيب، قال: لقد كنتُ في مسجد رسول الله ﷺ، فما يأتي وقت صلاة إلّا سمعتُ الأذان من القبر.

وأخرج ابن سعد في الطبقات، عن سعيد بن المسيب أنّه كان يلازم المسجد أيّام الحرّة، فإذا جاء الصبح سمع أذاناً من القبر الشريف[٣].

وأخرج زبير بن بكّار[٤] في أخبار المدينة، عن سعيد بن المسيب، قال: لم أزل أسمع الأذان والإقامة من قبر رسول الله ﷺ أيّام الحَرّة، حتّى عاد الناس.

وأخرج الدارمي في مسنده، عن مروان، عن سعيد بن عبد العزيز أنّه كان لا يعرف وقت الصلاة إلّا بهمهمةٍ تخرج من القبر[٥].

الفصل الثاني: في حياة سائر الشهداء والأنبياء

قد سبق أنّ الأرض لا تأكل لحومهم.

قال البيهقي في كتاب الاعتقاد[٦]: إنّ الأنبياء بعدما قُبِضوا رُدَّتْ إليهم

(١) صحيح مسلم (كتاب المساجد)، باب ٥٧؛ ومسند أحمد بن حنبل، الكتاب الخامس.

(٢) في النسخة المطبوعة: الأخبار.

(٣) الطبقات الكبرى ٥: ١٣٢.

(٤) الزبير بن بكّار، من أهل المدينة، تُوفي سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م عن (٨٤) عاماً. له مؤلّفات في الأنساب والتاريخ.

(٥) سنن الدارمي ١: ٥٦.

(٦) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للحافظ البيهقي الشافعي، طبع في بيروت سنة ١٩٨٨م.

أرواحهم، فهم أحياءٌ كالشهداء.

وقال القرطبي في التذكرة[١]: الموت ليس عدماً محضاً، يدلّ على ذلك أنّ الشهداء أحياء، فالأنبياء أولى، وقد صحّ أنّ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء.

وقال الاستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي شيخ الشافعي: إنّ الأنبياء لا تبلى أجسادهم، ولا تأكل الأرض منهم شيئاً، وقد التقى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله مع إبراهيم، وموسى بن عمران.

وعن أنس، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه مرَّ بقتلى بدر فكلّمهم، فقال له أصحابه: كيف تُكلِّم أجساداً لا أرواح فيها؟! فقال: لستُم أسمعَ منهم لكنّهم لا يتكلّمون.

وعن قتيبة وأبي الفضل، عن ابن عبّاس أنّ الحواريّين قالوا لعيسى: أحي لنا يحيى بن زكريا، حتّى ننظر إلى وجهه، فخرج معهم وأحياه، وإذا نصف شعر رأسه أبيض، وقد كان أسود فسألوه، فقال: لمّا نوديت زعمتُ أنّها القيامة، فقال عيسى: أتريد أن أسأل الله أن يردّك إلى الدُّنيا؟ فقال: إنّ مرارة الموت لم تخرج من حلقي بعد.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه مرَّ بإبراهيم يُصلّي، وبموسى يُصلّي. وفي حديث المعراج أنّه مرَّ بكثير من الأنبياء يصلّون.

وقال الحافظ شيخ السنّة أبو بكر البيهقي في الاعتقاد: أنّ الأنبياء تُردُّ إليهم أرواحهم بعدما يقبضون، فهم أحياء عند ربّهم كالشهداء، وقد رأى النبيّ صلى الله عليه وآله جماعة منهم، وصلُّوا خلفه، وقد أخبر هو عن ذلك، وخبرُهُ صدق، أنَّ صلاتنا تُعرضُ عليه، وأنَّ الأرض لا تأكل من لحمه.

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لشمس الدِّين محمّد بن أحمد القرطبي المتوفّى سنة ٦٧١هـ، وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٩٨١م ضمن جزأين.

وعن الشيخ عفيف الدِّين أنّ الأولياء من جملة خصائصهم رؤيا الأنبياء.

وقال الشيخ تقيّ الدِّين السبكي: إنّ حياة الأنبياء والشهداء في القبور كحياتهم في الدُّنيا، ويدلّ عليه صلاة موسى وجماعة من الأنبياء ليلة الإسراء مع النبيّ صلى الله عليه وآله.

وروى الثقات عن أنس مرفوعاً، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: أنَّ الأنبياء أحياءٌ في قبورهم.

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: مررتُ بقبر موسى بن عمران فرأيتهُ يُصلّي[١].

وقال الله تعالى في حقّ مَنْ قُتلوا في سبيل الله: ﴿أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢] إلى غير ذلك من الأخبار.

الفصل الثالث: في حياة سائر الموتى

روى ابن عبّاس مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: ما من أحدٍ يمرّ بقبر أخيه المؤمن فيسلّم عليه، إلّاَ عرفَهُ، وردَّ عليه السلام.

وفي رواية: ما من أحدٍ يمرّ بقبر رجلٍ يعرفه، إلّاَ عرَفَهُ، وردَّ عليه السلام[٣].

ونقل أبو عبدالله البخاري أنَّ الشهداء وسائر المؤمنين إذا زارهم المسلم وسلَّم عليهم، عرفوه وردّوا عليه السلام.

وروى الثعلبي في تفسيره، وابن المغازلي الواسطي في المناقب: أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله، وأصحابه لمّا حملهم البساط، وصَلَوا إلى موضع أهل (الكهف)، فقال: سلِّموا عليهم، فسلَّموا عليهم، ولم يردّوا، فسلّم النبيّ صلى الله عليه وآله عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله[٤].

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في كنز العمّال، الفصل الثالث في زيارة القبور، المجلّد الخامس.

(٢) القرآن الكريم: ٣ / ١٦٩ (سورة آل عمران).

(٣) كنز العمّال ١: ٦٤٦.

(٤) ابن المغازلي، مناقب علي بن أبي طالب: ٢.

وأخرج الشيخ ابن حيارة في كتاب (الوصايا)، عن قيس، قال: قال النبيّ ﷺ: من لم يوص، لم يُؤذَنْ له في الكلام مع الموتى، قيل: يارسول الله الموتى يتكلّمون؟ فقال: نعم ويتزاورون.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه رأى جعفراً يطير في الجنّة.

ونقل أبو بكر محمّد بن عبدالله الشافعي أنّ عيسى لمّا دفن مريم، قال: السلام عليك يا اُمّاه، فأجابته من جوف القبر: وعليك السلام حبيبي، وقرّة عيني، فقال لها: كيف وجدتِ طعم الموت؟ فقالت: والذي بعثك بالحقّ ما ذهبتْ مرارة الموت من حَلْقِي، ولا خشونته من لساني.

وروى الحاكم عن سالم بن أبي حفصة قال: توفّي أخٌ لي، فوضعتُهُ في القبر، وسوّيتُ عليه التراب، ثمّ وضعتُ أُذني على لحده، فسمعتُ قائلاً يقول له: مَنْ ربُّكَ، فسمعتُ أخي يقول بصوتٍ ضعيف: ربّي الله، فقال له: وما دينُك؟ فسمعتُ أخي يقول بصوتٍ ضعيف: ديني الإسلام، فسمعتهُ يقول له: ومَنْ نبيُّك؟ فسمعتُهُ يقول بصوتٍ ضعيف: محمّد نبيّي، فسمعتهُ يقول له: نَمْ نومَ العروس، وسمعتُ المَلَك الآخر يقول له: أبشر برَوْحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان[1].

وفي الأخبار، عن عمر بن الخطّاب أنّه قال: ما من ميّت يموت، يوضع على سريره، فَيُخْطَى ثلاثَ خُطوات، إلّا ويُنادى بنداءٍ يسمعه ما شاء الله من الخلائق من الثقلين، فيقول: يا إخوتاه، يا خدماه، يا حملة نعشاه، لا تغرّنكم الدُّنيا كما غرّتني، ولا يلعبن بكم الزمان كما لعب بي، خلَّفتُ ما جمعتُ لورثتي، ولم يحملوا من خطيئتي شيئاً، والديّان يحاسبني، وأنتم تشيّعون جنازتي، ثمّ تدعونني في لحدي.

وزِيدَ في آخر: ثمّ تسلّمونني إلى منكرٍ ونكير، وانداماته،

(١) كنز العمّال ١: ٦٠٥.

وانداماته، وانداماته[١].

وعن الفقيه الزاهد إسماعيل بن الحسن، عن عمر بن الخطّاب أنّه دخل المقابر، فنادى يا أهل المقابر، الأموال قد قُسِّمتْ، والدور قد سُكنتْ، والأزواج قد نُكحتْ، فهذا خبر ما عندنا، فاخبرونا ما عندكم؟ قال: فهتف به هاتف، وهو ينادي ويقول: يابن الخطّاب وجدنا ما عملنا ربحاً، وما خلفنا خسراناً، والجبّار سألنا عن جميع ما فعلنا، ثمّ سكت.

وعن كعب، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: لا يمرُّ أحدٌ بالمقابر إلّا وينادي أهل القبور: ياغافلاً لو علمتَ بما نحن فيه لذاب لحمك وجسمك، كما يذوب الثلج في النار[٢].

وعن الضحّاك، عن ابن عبّاس، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: إنّ الموتى ينادون في كلّ يوم ثلاث مرّات من قبورهم: يا أهل الديار عجّلوا عجّلوا، فإنّما نحن محبوسون من أجلكم، الرحيل الرحيل، لا تحبسوا إخوانكم، خرِّبوا ما بنيتم، واتركوا ما جمعتم، نوّرتم البيوت، وأظلمتم القبور، وبنيتم البيوت، ونسيتم القبور، وعمّرتم البيوت، وخرّبتم القبور، ووسّعتم البيوت، وضيّقتم القبور، (وذكروا غير ذلك)[٣].

وعن أبي عبدالله محمّد بن عمر، يروي عن عمر، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: ما مَنْ يوم يمضي إلّا ومَلَكٌ يهتف: يا أهل القبور مَن تغبطون اليوم؟ فيقولون: نغبط أهل المساجد، يصلّون في مساجدهم، ويصومون ويصدَّقون، ولا نقدر نصلّي ونصوم ونتصدّق.

وعن محمّد بن أبي عبدالله بن الفضل، عن محمّد بن كعب، قال: مرَّ عيسى علىٰ قبر، فرأى فيه عذاباً شديداً، فدعا الله حتّى أحياه، فقال له عيسى: فَلِمَ تُعذَّب؟

(١) كنز العمّال ١: ٥٩٦.
(٢) في النسخة المطبوعة: الملح بالماء.
(٣) كنز العمّال ١٥: ٦٢٦.

قال: كنت جالساً في سوق (مصر)، وقد أكلت شيئاً، فأخذتُ عُودةً من حزمة شوكٍ لأُخلّل أسناني بها، ومتُّ منذ أربعة آلاف سنة وأنا في عذابها، ثمّ قال: ياروح الله منذ أربعة آلاف سنة ومرارة الموت باقيةٌ في حلقي. فقال عيسى: اللّهُم يسِّر عليه سكرات الموت.

وعن وهب بن منبه أنّ عيسى عليه السلام مرَّ على نهرٍ فيه ماء عذب، وحوله خابية[1]، كلّما يوضع فيها من ذلك الماء يصير مالحاً، فقال: إلٰهي ما خبر هذا الماء المالح ؟! فأذن الله للخابية بالكلام، فقالت: إنّي كنتُ آدميّاً، فبقيتُ في قبري ثلاثمائة سنة، ثمّ جاء لبّانٌ، فضرب ترابي لِبْنَاً، وبنيت في قصر ثلاثمائة سنة، ثمّ خرّب القصر، فبقيتُ تراباً مائتي سنة، ثمّ جاء شخص فجعلني (حِبّاً)، ووضعني سقايةً على شاطئ هذا النهر من مائة سنة وكلّ ما يجعل فيَّ يكون مالحاً، لما فيَّ من مرارة نزع الروح، وأنا معذّبٌ منذ متُّ، لأنّي أخذتُ إبرةً من جاري، وما رددتُها حتّى مِتُّ. فما أدري أنَّ عذابي أشدّ أم مرارة الموت، فقال عيسىٰ: اللّهُم يسِّرْ عليَّ الموت، ونجّني من عذاب القبر... (الحديث) وقد ذكرنا من مضمونه محلّ الحاجة.

وعن عائشة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: أنَّ أشدّ الأحوال على الميّت حين يدخل (الغسّال) داره ليغسله، فيخرج خواتم الشبّان من أصابعهم، وينزع قميص العروس من بدنها، ويرفع عمائم المشايخ عن رؤوسهم. فعند ذلك يقول بصوتٍ يسمع الخلائق غير الثقلين: يا غسّال بالله عليك انزع ثيابي برفق، فإنّي الساعة استرحتُ من مخاليب مَلَك الموت، فإذا صبّ عليه الماء صاح كذلك. فإذا رُفعَ عن المغتسل، وشدَّ مواضع قدميه بالكفن، يقول: بالله عليك لا تشدّ رأس كفني ليرى وجهي أهلي وأولادي وعروسي التي كنتُ أحبّها، وينظرُ إلى وجهي أقربائي، وأحبّائي وإخواني، وجيراني، ورفقائي، فإنّ هذه آخر رؤياي.

(١) الخابية: الجرّة الكبير المُستعملة لحفظ الماء.

فإذا خرج من الدار، نادى بالله عليكم يا حملة نعشي لا تُعَجِّلوا بي، حتّى أودِّعَ داري التي بنيتُها، وزيَّنتُها ونقّشتُها بأنواع النقوش، وأهلي ومالي وأولادي، فإنّ هذا خروجٌ لا مردَّ بعده إلى يوم القيامة.

فإذا رُفعت الجنازة، نادى يا حملَة نعشي بالله عليكم لا تُعجِّلوا بي، حتّى أسمع أصوات أولادي الذين يَعْوَلُونَ خلف جنازتي، وعروسي التي تبكي عليَّ، ووالدي الذي تقوّس ظهره لموتي، ووالدتي التي شدَّتْ وسطها بالمنديل لمفارقتي، وقد نشرتْ شعرها، وضربتْ صدرها، وتقوّس ظهرها، وابيضَّتْ عيناها لفقدي.

فإذا صُلّي على جنازته، ورُفعَ من المصلّى، ورجع بعض أصدقائه، يقول: يا إخوتاه كنتُ أعلمُ أنَّ الميّت ينساه الأحياء، لكن لا بهذه السرعة، رجعتم قبل أن تدفنوني، ونسيتموني بهذه السرعة، وجسمي بعد بين أظهركم.

فإذا وُضعَ في لحده، وَوُضعَ عليه التراب، ينادي وا ورثتاه، تركتُ لكم الكثير، فلا تنسوني، تصدَّقوا عنّي على فقرائكم، ولو بكسرة خبز محترق، وعلّمتكم القرآن والأدب، فلا تنسوني من الدعاء، فإنّي صرت محتاجاً، كفقرائكم على أبوابكم، ومحتاجاً إلى دعائكم، كصاحب حاجتكم إلى ساداتكم[1].

وممّا يدلّ على بقاء حياتهم في قبورهم، ما دلَّ على أنَّ الميّت بعدما يُسأل، يُفتح له بابٌ إلى الجنّة، إن كان من أهل الخير، أو إلى النار إنْ كان من أهل الشرّ، وبقاء اللّذة والألم ظاهرٌ في بقاء أثر الحياة.

وعن عبدالله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا مات أحدكم، عرض عليه مقعده بالغدوة والعشيّ، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: إنَّ الميّت يُسأل في قبره عن النبيّ ﷺ، فإن

(١) تُراجع هذه الأحاديث في الجزء الخامس عشر من كنز العمّال في الباب الأوّل (في ذكر الموت وفضائله)، حديث ٤٢٠٩٤ حتّى حديث ٤٣٠١١ (من ص٥٤٨ حتّى ص٧٥٨).

أجاب بالحقّ قيل له: نَمْ نومةَ العروس، وإلّا فُتِحَ له بابٌ إلى قبره يكون معذّباً إلى يوم القيامة[١].

وعن البراء بن عازب، عن النبيّ ﷺ، قال: يأتيه ملكان يجلسانه، ثمّ ذكر أنّهما يسألانه، فإن أجاب بحقّ، فُتح له بابٌ إلى الجنّة، فيأتيه من روحها وطيبها، وإلّا يُفتحُ له بابٌ إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمُومِها. إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة الدالّة على أنّهم في قبورهم يتلذذون ويتألّمون، وهذا من توابع الحياة ولوازمها.

وكيف كان فقد بلغت هذه الأخبار فوق التواتر، وبعد عموم قدرة الفاعل المختار، لا بُعدَ ولا غرابة في مداليلها.

وما دلَّ من الكتاب والسنّة على أنّ الإحياء يكون عند النفخ في (الصُور)، فقد بيّنا أنَّ المراد: إمّا الحياة على النحو المعهود من تلك الأشخاص الخاصّة بعينها، أو يُرادُ أنّه يوم البروز والظهور على عيون الأشهاد.

وإذا تبيّن بهذه الأخبار المتواترة، أنّهم يسمعون ويعقلون ويعرفون مَنْ يُخاطبُهم، صحَّ لنا أنْ نخاطبهم مخاطبة الأحياء فنلتمس دعاءهم، ونقسم عليهم بالأقسام في أنْ يكونوا شفعاء لنا في الدُّنيا وفي يوم القيام؛ لأنّ الشفاعة أظهر فرديها أنّها دعاءٌ خاصّ، واختصاص الخواص بها باعتبار قبولها.

فلو قال قائلٌ لنبيّ، أو وصيّ، أو عبدٍ صالح: اشفع لي، أو ادعُ لي، أو أغثني، أو أعنِّي (أي بدعائك)، أو قال: اقض لي حاجتي، أو ارزقني مالاً، وادفع الضرر عنّي، ونحو ذلك ولا يريد سوى التوسّط بالدّعاء وسؤال الله، لم يكن عليه شيء.

وقد وقع كثيرٌ من ذلك في كلام الصحابة والتابعين، بل ربّما كان هذا التعبير أولى؛ لدلالته على قرب منزلة العبد عند مولاه واحترامه، فتكون شهادة له

(١) سنن الترمذي (كتاب الجنائز)، باب ٧٠ ـ ما جاء في عذاب القبر ـ حديث ١٠٧١.

بنبوّته، وقرب منزلته.

وليس على مَن قال للعبد المقرّب، أو إلى الخادم المقرّب: اقض حاجتي، (بمعنى اِسعَ لي في قضائها عند مولاك)، بأسٌ، بل هو أنسب في التواضع إلى المولى.

وأمّا مَنْ قال مثل ذلك معتقداً أنّ الأنبياء والأوصياء بأيديهم الأمر أصالةً، يفعلون ما يشاؤون، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وإنّي قد طفتُ بشطرٍ من بلاد المسلمين، وخالطتُ كثيراً منهم منذ سنين، فلم أرَ أحداً يعتقد أنَّ في الوجود فاعلاً مختاراً سوى الفاعل المختار العزيز الجبّار تبارك وتعالى، وذلك مراد (العوام) في خطاباتهم، فضلاً عن العلماء الأعلام، إلّا أنّهم لا يمكنهم كشف الحال، وإن كان مقصدهم ذلك على الإجمال. نسأل الله وإيّاكم طريق السداد والنجاة من أهوال يوم المعاد.

الباب الثاني
في الزيارات

وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: في زيارة قبر النبيّ صلى الله عليه وآله

روى الدارقطني في السنن وغيرها، والبيهقي، وغيرهما من طريق موسى بن هلال العبدي، عن عبدالله العمري، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن زار قبري وجبتْ له شفاعتي.

وعن نافع، عن سالم، عن ابن عمر مرفوعاً، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: مَنْ جاءني زائراً ليس له حاجة إلّا زيارتي، كان حقّاً عليَّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة.

وعن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله: مَنْ حجَّ وزار قبري بعد وفاتي، كان كمَنْ زارني في حياتي.

وروي عن عائشة أيضاً، وعن نافع، عن ابن عمر، عن النبيّ، قال: مَنْ زارني كنتُ له شهيداً أو شفيعاً.

وعن نافع، عن ابن عمر، عن النبيﷺ قال: مَن حجَّ فلم يزرني، فقد جفاني[١].

وعن أبي هريرة مرفوعاً، عن النبيّﷺ قال: مَنْ زارني بعد موتي، فكأنّما زارني حيّاً[٢].

وعن أنس مرفوعاً، عن النبيّﷺ، قال: مَن زارني في المدينة، كنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة[٣].

وعن أنس مرفوعاً عن النبيّﷺ قال: مَنْ زارني ميّتاً كمَنْ زارني حيّاً، ومَنْ زار قبري وجبتْ له شفاعتي يوم القيامة.

وعن ابن عبّاس، عن النبيّﷺ قال: مَن زارني في مماتي، كان كمن زارني في حياتي، ومَنْ لم يزرني فقد جفاني.

وعن عليّ عليه السلام مرفوعاً، عن النبيّﷺ: مَنْ زار قبري بعد مماتي، فكأنّما زارني في حياتي، ومَنْ لم يزرني فقد جفاني.

وعن ابن عبّاس، عن النبيّﷺ قال: مَنْ حجَّ وقصدني في مسجدي، كانت له حجّتان مبرورتان.

وروى ابن عساكر، عن علي عليه السلام قال: مَن زار قبر رسول اللهﷺ، كان في جوار رسول اللهﷺ.

وعن بكر بن عبدالله مرفوعاً، عن النبيّﷺ قال: مَن أتى المدينة زائراً لي، وجبت له الجنّة.

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في سنن البيهقي ٥: (كتاب الحجّ)، باب زيارة قبر النبيّﷺ.

(٢) كنز العمّال (باب زيارة قبر النبي)، المجلّد الخامس، حديث ١٢٣٨٢.

(٣) المصدر نفسه (باب زيارة قبر النبيّﷺ) المجلّد ١٥، حديث ٤٢٥٨٤.

وعن كعب الأحبار أنّ عمر لمّا فتح بيت المقدس قال لي: هل لك أن تسير معي إلى المدينة تزور قبر النبيّ صلى الله عليه وآله؟ فذهبت معه، فلمّا دخل بدأ بالمسجد، وسلّم على النبيّ صلى الله عليه وآله.

وفي الموطأ عن ابن عمر كان يقف عند قبر النبيّ صلى الله عليه وآله فيُسلِّم عليه، وعلى أبي بكر، وعمر.

وسئل نافع: هل كان ابن عمر يسلّم على قبر النبيّ صلى الله عليه وآله؟ فقال: رأيته مائة مرّة أو أكثر يُسلِّم على النبيّ صلى الله عليه وآله، وعلى أبي بكر، وعمر.

وعن ابن عمر: أنّ سُنّة السلام من قبل القبلة.

ونقل الدارقطني، عن علي عليه السلام أنّه دخل المسجد فسلّم على القبر. ورُوي عن آل الخطّاب، وعن بعض الحفّاظ زيارة النبيّ صلى الله عليه وآله.

وكيف كان، فالروايات في استحباب زيارته وشفاعته لزوّاره، داخلةٌ في قسم المتواتر، وعمل الصحابة والتابعين وأهل البيت أجمعين على ذلك.

قال عياض: زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله سنّة، أجمع عليها المسلمون. وروى غيره إجماع المسلمين قولاً وفعلاً على استحباب زيارته، وصريحٌ بعضها[1] أنّ شدّ الرحال إليها لا مانع منه.

وفيما دلّ على استحباب التعظيم، وأنّ حرمة الأموات كحرمة الأحياء، كفاية.

الفصل الثاني: في زيارة باقي القبور

قد مرَّ في الأخبار الماضية زيارة الصحابة قبري الشيخين.

وروى بريدة عن النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّي نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها[2].

---

(١) في النسخة المطبوعة: وصرّح بعضهم.

(٢) صحيح مسلم (كتاب الجنائز)، المجلّد الثاني، باب ٣٦، حديث ١٠٦؛ وسنن ابن ماجه (باب ما جاء في زيارة القبور)، باب ٤٧، حديث ١٥٧١.

ولعلّ السرّ ـ والله أعلم ـ أنّه في مبدأ الإسلام كانت زيارة القبور وتذكار الموتى والقتلى، باعثاً على الجبن عن الجهاد، حتّى إذا قوي الإسلام أمرهم بها. ونحو ذلك في خبر آخر.

وعن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ زار قبر أُمّه، ولم يستغفر لها، قال: أُمرتُ بالزيارة، ونهيتُ عن الاستغفار، فزوروا القبور، فإنّها تذكّر الموت[١].

وعن بريدة أنّ النبيّ ﷺ كان إذا خرج إلى المقابر، قال: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين»، رواه مسلم[٢].

وعن عائشة أنّ النبيّ ﷺ كان يخرج إلى البقيع آخر الليل، فيقول: السلام عليكم... (الخبر)، رواه مسلم[٣].

وكيف كان، فالأخبار متظافرة على زيارة القبور، ولا حاجة لنقل جميعها. وفيما ورد من أنَّ حرمة المسلم ميّتاً كحرمته حيّاً دلالة على ذلك، وزيارة النبيّ ﷺ، والصحابة لقبور الشهداء أوضح من الشمس في رابعة النهار.

الباب الثالث: في التبرّك بالقبور ونحوها

اختلف العلماء من أهل السنّة والجماعة في جواز التبرّك بالقبور، فمنهم: من أجازه على كراهة.

قال النووي: لا يجوز أنْ يُطاف بقبر النبيّ ﷺ، ويكره إلصاق البطن والظهر به. قال: ويكره مسّهُ باليد وتقبيله، بل الأدب أن يبعد عنه، كما لو حضر في حياته.

وكلامه ظاهرٌ في أنَّ المسّ أبعد من التعظيم، وشبهة العبودية.

وذكر ابن عساكر في (تُحَفِهِ)، عن ابن عمر أنّه كان يكره مسّ قبر النبيّ ﷺ.

ويظهر من بعضهم ندبه واستحبابه.

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الجنائز)، باب استئذان النبيّ ﷺ ربّه في زيارة قبر أُمّه، حديث ١٠٨.

(٢) المصدر نفسه (كتاب الجنائز)، باب ما يقال عند دخول القبور، حديث ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه (كتاب الجنائز)، باب ما يقال عند دخول القبور، حديث ١٠٢.

نقل عبدالله بن أحمد بن حنبل في كتاب العلل والسؤالات، قال: سألتُ أبي عن الرجل يمسّ منبر رسول الله ﷺ، يتبرّك بمسّه وتقبيله، ويفعل بالقبر ذلك رجاء ثواب الله تعالى، فقال: لا بأس به.

وعن إسماعيل أنّ ابن المنكدر[1] يصيبه الصمَّات، فكان يقوم ويضع خدّهُ على قبر النبيّ ﷺ، فعُوتبَ في ذلك، فقال: يستشفى بقبر النبيّ ﷺ. والاستشفاء أعظم من التبرّك.

ونقل عن ابن أبي الضيف، والمحبّ الطبري، جواز تقبيل قبور الصالحين، وظاهره الندب.

وفي رواية عن ابن حنبل أنّي لا أعرف التمسّح بالقبر، أمّا المنبر فنعم، لما روي أنّ ابن عمر كان يفعله.

ونقل عن مالك التبرّك بالمنبر.

وروي عن يحيى بن سعيد شيخ مالك أنّه حينما أراد الخروج إلى العراق، جاء إلى المنبر، وتمسّح به.

وقال السبكي: مَنْعُ التمسّح بالقبر ليس ممّا قام الإجماع عليه. واستدلّ بما رواه يحيى بن الحسن، عن عمر بن خالد، عن أبي نباتة، عن كُثير بن يزيد، عن المطلب ابن عبدالله، قال: أقبل مروان بن الحكم، فإذا رجلٌ ملتزم القبر، فأخذ مروان برقبته وقال: ما تصنع ؟! فقال: إنّي لم آتِ الحجر ولا اللبن، إنّما جئتُ رسول الله ﷺ. وذكر رواية أحمد، قال: وكان الرجل أبا أيّوب الأنصاري.

ونقل هذه الرواية أحمد، وزاد فيها: أنّه قال: سمعت رسول الله يقول: لاتبكوا على الدِّين إذا ولّيه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا ولّيه غير أهله.

وعن أبي الدرداء أنّ بلالاً رأى النبيّ ﷺ في المنام، فقال له: ما هذه الجفوة يا

(١) محمّد بن المنكدر القرشي التيمي أحد الأئمّة التابعين، تُوفي سنة ١٣٠هـ / ٧٤٨م.

بلال، أمَا لَكَ أن تزورني؟ فانتبه حزيناً خائفاً، فركب راحلته، وقصد المدينة، فأتى قبر النبيّ ﷺ فجعل يبكي عنده، ويمرِّغ وجهه عليه، إلى أنْ ذكر حضور الحسنين وبكاء أهل المدينة، وأذان بلال، قال: فما رُئي أكثر باكياً ولا باكية بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم.

وذكر ابن حملة أنّ (بلالاً) وضع خدّيه على القبر، وأنّ ابن عمر كان يضع يده اليمنى عليه.

ونُقلَ عن مالك، والزعفراني تحريمه، وهو الظاهر من كلام أنس بن مالك، حيث قال: ما كنّا نعرفه.

وكيف كان، كيف يدّعى المسّ والتبرّك عبادة مع أنّه أبعد عن التعظيم؟! وقضية الذمّ على عبادة يعوق ويغوث ونسر، ليس من جهة التبرّك، كما نصَّ عليه المفسِّرون[1]، حيث قالوا: تبرّكت الآباء فانتهى الأمر إلى عبادة الأبناء، فوقع الذمّ على الأبناء.

وتحقيق الحال: أنّ التقبيل على أنحاء:

منها: تقبيل المحبّة؛ لأنّ من أحبّ شخصاً أحبّ مكانه، وثيابه، وداره، ومزاره، فلا يكون تقبيل الأعتاب، والجدران، والأبواب إلّا كتقبيل بعض ثياب الأحباب، فهو من قبيل قوله:

أمرُّ على الديار ديارِ (ليلى) أُقبِّلُ ذا الجدارَ ولا الجدارا
وما حُبُّ الديار شغفنَ قلبي ولكنْ حُبُّ مَنْ سكنَ الديارا

وسُئل رسول الله ﷺ عن تقبيل اليد، فنهى عن ذلك، إلّا في تقبيل يد الزوجة للشهوة، ويد الولد للمحبّة.

(١) في تفسير الآية (٢٣) من سورة نوح.

وعن عليّ عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله بعد فتح خيبر: لولا أن تقول فيك طوائف من أُمّتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلتُ اليوم فيك مقالاً، لا تمرّ على ملإ من المسلمين إلّا أخذوا تراب رجليك، وفضل طهورك يستشفون به، ولكن حسبك أنّك منّي وأنا منك[١].

وروي عن علي عليه السلام أنّه قال: قدم علينا أعرابيٌ، بعد دفن النبيّ صلى الله عليه وآله بثلاثة أيّام، فرمى بنفسه على القبر، وحَثَا من ترابه على رأسه.

وعلى كلّ حال، فالذي يظهر بعد تحقيق النظر أنّ التقبيل للمحبّة من قبيل تقبيل الوالد لولده[٢]، والأرحام بعضهم لبعضٍ فلو قبَّل بعضهم جدران بعض، أو ثياب بعض، أو مكان بعض، حبّاً وإرادةً، لا تعظيماً ولا عبادةً، فليس فيه بأس.

وأمّا قصد التعظيم والإكرام، فليس فيه خروجٌ عن ملّة الإسلام، قصارى ما هناك أنّه عدّه بعض العلماء من الآثام، فليس على الفاعل عن دليل في الردّ عليه من سبيل. وأمّا من فعل مشرعاً فهو عاصٍ لربّه، حتّى يتوب عن ذنبه.

ولقد نقل عن بعض أمراء دار السلام بغداد أنّه وشى بعض الوشاة على جماعة أنّهم يُقبِّلون أعتاب الأولياء، فقال: سبحان الله في كلّ يوم تقبّلون جلد الميتة «يعني الفروة التي هو لابسها»، ولا تقبّلون أعتاب أبواب الأولياء.

وعلى أيّ تقدير، فالغرض إنّما هو نفي (التكفير). ونسبة فعل هؤلاء إلى فعل عبدة الأصنام خروجٌ عن الإنصاف في هذا المقام؛ لأنَّ الذاهبين إلى الجواز منّا إنّما أخذوا عن الدليل، لا لمجرّد الاختراع والابتداع، فإن اشتبهوا عُذِروا وأُجِروا.

فمن قبَّل الحجر الأسود، والركن اليمانيّ، أو باقي الأركان، أو مسَّها، أو لزم المستجار، فقد تبرّك بتلك الأحجار؛ لأنّها بأمرٍ من العزيز الجبّار، ولو أخطأ

(١) نهج البلاغة ٢: ٤٤٩.

(٢) في النسخة المطبوعة: «الوالدة لولدها».

الأمر، كان مثاباً.

ومن طاف بين (المروتين)، عملاً بالكتاب وسنّة سيّد الثقلين، لم يكن عليه مؤاخذة في البين.

وطوائف المسلمين بأجمعهم لا يتبرّك منهم أحدٌ بقبر أو غيره، إلّا بزعم أنّه مأمورٌ من الله، ومَنْ تبرّك قاصداً للعبادة، فهو خارجٌ عن ربقة المسلمين.

ومن البين المعلوم أنّه لو أمر (المولى) عبده بالتبرّك بثياب عبده المقرّب، أو مكانه، أو قبره، فامتثل، كان مطيعاً لمولاه، لا للعبد الذي قرّبه وأدناه.

فأقسمتُ عليك بمَنْ جمعَ بيننا في كلمة الإسلام، وألَّفَ بين قلوبنا في هذه الأيّام، أنْ تنفرد عن الأصحاب إذا ورد عليك (الكتاب)، وترى نفسك كأنّك الآن خلقت من تراب، وتبذل الجهد في تمييز الخطأ من الصواب، فإنّه ـ والله[1] ـ لاحاجة بنا إلّا إليه، ولا اعتماد لنا إلّا عليه.

وليس لنا مع الأنبياء والأولياء قرابة نسب، ولا لهم علينا ما نخاف منه الطلب، وإنّما عظّمناهم لأمر الله، وأخذنا بأقوالهم عملاً بقول رسول الله، وما أُبرّئُ نفسي إنَّ النفس لأمّارةٌ بالسوء إلّا ما رحم ربّي.

وكشف الحال على وجه يدفع ما قيل أو يقال: إنّ التواضع والتبرّك والإكرام والاحترام لما هو مُعظَّم عند الملك العلّام من تعظيم الله، كما أنّ قرآنه وبيته، ومساجده لانتسابها إليه، احترامٌ له تبارك وتعالى. فمن عظَّمَ عيسى ومريم وعزير لعبوديّتهم، وقرب منزلتهم، فهو معظّم لله.

كما أنّ من عظّم بيت السلطان وعبيده وغلمانه وأتباعه من حيث التبعيّة، يكون معظّماً للسلطان. وأمّا من (وجدها) قابلة للتعظيم، وأهلاً له من حيث ذاتها لا لأجل العبودية والتابعيّة، وإنْ كان غرضه التقريب زلفى، إنّما يكون معظّماً لها، لا للسلطان.

(١) في النسخة المطبوعة: فأنا وأنتَ.

وإنّي منذ ثلاثين حجّة أنظرُ في حال طوائف المسلمين، محقّيهم ومبطليهم، فلم أجد أحداً يعظّم كتاباً، أو نبيّاً، أو مكاناً، أو عبداً صالحاً من غير قصد قربة من الله، أو انتسابه إليه، فقد ظهر أنّ هذا كلّه من باب طاعة الله وتعظيمه.

وأمّا عبدة الأصنام والعباد الصالحين، فإنّما أرادوا عبادتهم حقّ العبادة، كأنْ يُصلّوا لهم، ويصوموا، ويكون ذلك لاستحقاقهم بربوبيّتهم في أنفسهم، أو للتقريب زلفى، فهي عبادة حقيقيّة على الوجهين.

وعلى كلّ من الاحتمالين على أنّي ذكرتُ مكرّراً أنّهم عاندوا الرُّسل، وكذّبوهم، واستهزؤا بهم، وقالوا أيضاً: لا طاقة لنا بعبادة الله، وإنّما نعبد الأصنام لأنَّ عبادتهم مقدورة لنا، وهم يقرّبونا إلى الله زلفى، ولقد نقلتُ روايةً مشتملةً على ذلك المعنى في مقام آخر، فالفرق بين الأمرين أوضح ممّا يُرى رأي العين.

فبحقّ مَنْ شقَّ لك السمع والبصر، وسلَّطك على طوائف من الأعراب والحضر، أنْ توجِّه ذهنك الوقّاد، وفكرَك النقّاد، صافياً عن ملاحظة العصبية والعناد، وتجعل مناظرتنا كأنّها حين حلولنا في المقابر، وانصرافنا عن مرارة الدُّنيا، طالبين للنعيم الفاخر، وحضورنا يوم فصل القضاء بين يدي جبّار الأرض والسماء، وكأنّ الملائكة بيننا شهود، وقد حضرنا في اليوم الموعود، وقد فارقنا الأموال والأولاد، وانقطعنا إلى ربّ العباد.

اللّهُمَّ اجمعْ بيننا بالحقّ، واعصمنا عن الميل إلى رضا الخَلْق.

الباب الرابع: في بناء قبور الأنبياء والأولياء وتعميرها وتعلية بنائها وتشييد أركانها

لا يخفى على مَنْ أمعنَ النظر، وتتبَّع الآثار والسير، أنّ الأزمنة مختلفة الأحوال بالنسبة إلى جميع الأقوال والأفعال، فرُبَّ شيءٍ كان في قديم الزمان في أعلى مراتب الاستحسان، فانعكس وصار أدنى ما يكون أو كان.

وحيث إنّ الشارع حكيم، وبالعباد رحيم، يراعي أحوالهم، ففي مبدأ

الإسلام لمّا كان المعاش ضيّقاً، والأسعار متصاعدة في المآكل والملابس، حافظ النبيّ ﷺ، والصحابة في أيّامهم على المآكل الجشبة، والملابس الخشنة أو الخَلِقَة؛ لئلا تنكسر قلوب الفقراء، ولتطيب نفوسهم، فإنّهم إذا رأوا سيّد الجميع لابساً رَثَّ اللباس، وآكلاً أدنى المأكول، استقرّت نفوسهم، واطمئنّتْ قلوبهم، وارتفعت كدورتهم.

ثمّ لمّا توسّعت أحوال الناس، وقوي الإسلام، ورخصت الأسعار، استعمل الأكثر من الخلفاء أحسن الملبوس، وأكلوا أطيب المأكول، وهذا التعليل مستفاد من الأخبار أيضاً.

ولذلك نقول في أمر بناء (المساجد) و(الحَضْرَات)، فإنّهم كانوا لا يرفعون البناء، ولا يزيّنون الدور، لما بهم من القصور، فإذا كانت بيوت الله، وبيوت أنبيائه لم يرفع بناؤها طابت نفوس الفقراء، واطمئنّت قلوبهم.

وأمّا في مثل هذه الأيّام ونحوها، حيث ارتفع بناءُ الدور، فلا وجه لجعل بيوت الله أخفض منها، ومَنْ يرضى بتعلية بيوت الخلق على بيوت الخالق مع أنّ في تعليتها تعظيماً لشعائر الله، وهي البيوت التي أذِن الله أن تُرفع ويُذْكر فيها اسمه.

و(القباب) منها؛ لأنّها جُعلتْ للعبادة، وليس في بناء القباب تجديد قبر، لأنّ القبر باقٍ على حاله لم يجدّد، وإنّما وضع أساس القبّة بعيداً عنه، ليكون فيها علامة على (المزار) الذي نَدَب إلى زيارته العزيزُ الجبّار، ولتكون ظلالاً للزائرين، فلا تدخل في باب التجديد أصلاً، وكذا صندوق الخشب، فإنّه أجنبيٌّ عن القبر لا دخل له به.

وعلى كلّ حال، فأصل وضع البناء لهذه المقاصد الجليلة ليس فيه بأس أصلاً، ولو تُركت العلامات ما أمكن التوصّل إلى زيارة أكثر الأموات لاندراس آثارهم، فوُضعَ هذا للتمكّن من إدراك فضيلة زيارة القبور، وكلّما كان الشاهد أحكم، كانت دلالتهُ على المشْعَر أدوم.

وأمّا قضيّة (الزينة) فقد رُويَ عن علي عليه السلام أنّ بعض الصحابة أشاروا على عمر أنْ يأخذ زينة الكعبة ليقوّي بها جيوش المسلمين، فقال له عليّ عليه السلام: إنّ الأموال قسّمها النبيّ صلى الله عليه وآله على الفقراء، وكانت في ذلك اليوم الحليّ موجودة ولم يقسّمها، فلا تخالف وضع رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عمر رضي الله عنه: «لولاك افتضحنا»، وأبقى الحليّ على حالها.

والأصل في بناء (القباب) وتعميرها، ما رواه البناني (واعظ أهل الحجاز) عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه الحسين، عن أبيه عليّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: والله لتقتلنّ في أرض العراق، وتدفن بها. فقلت: يارسول الله ما لمن زار قبورنا وعمَّرها وتعاهدها؟ فقال لي: يا أبا الحسن إنّ الله جعل قبرك وقبر ولديك بقاعاً من بقاع الجنّة، وإنّ الله جعل قلوب نجباء من خلقه، وصفوة من عباده تحنُّ إليكم، ويعمّرون قبوركم، ويكثرون زيارتها، تقرّباً إلى الله تعالى، ومودّةً منهم لرسوله. يا عليّ مَنْ عمَّرَ قبوركم وتعاهدها، فكأنّما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الإسلام، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمّه.

ونُقِلَ نحو ذلك أيضاً في حديثين معتبرين: نقل أحدهما الوزير السعيد بسند، وثانيهما بسندٍ آخر غير ذلك السند، ورواه أيضاً محمّد بن عليّ بن الفضل.

فبعد دلالة هذه الأخبار على تعمير (القباب)، واستمرار طريقة الأصحاب، مع أنّها داخلة في المواضع المعدّة للطاعات، كالمساجد، والمدارس، والرباطات، مع أنّ فيها تعظيماً لشعائر الإسلام، وإرغاماً لمنكري دين النبيّ عليه الصلاة والسلام.

وبعد أن بيّنا أنّ الحكم والمصالح تختلف باختلاف الأوقات، وذكرنا اعتضاد ذلك بالروايات، لم يبق بحثٌ من جميع الجهات.

وعلى تقدير ثبوت الخطأ في هذا الباب، لا يلزم على المخطئ تكفير

ولا عصيان، بل ربّما يُثاب، لأنّ الخالي من التقصير وإن اتّصف بالقصور معذور كلّ العذر، بل هو مأجور.

فيا أخي لا تعارض المسلمين فيما هم عليه إن لم تركن إلى ما ركنوا إليه، واحملهم على المحامل الحسان، فانّا هكذا أمرنا بحمل الاخوان، وفّقنا الله وإيّاكم، وهدانا وهداكم، والله وليّ التوفيق.

وحيث انتهى ما أردنا ذكره، وأحببنا رسمه وسطره، على غاية من السرعة والاستعجال، وعدم التمكّن لاستيفاء كثير ممّا يناسب هذا المجال، والاستقصاء لما في كتب الأخبار والاستدلال، أحببنا أن نضيف إلى ذلك:

كشفُ الجواب: عمّا تَضَمَّنهُ ذلك الكتاب من الإنكار على أكثر المسلمين في جميع الأقطار[1].

أقول: إنْ أُريد بدعوة غير الله والاستغاثة إسناد الأمر إلى المخلوق على أنّه الفاعل المختار الذي تنتهي إليه المنافع والمضارّ، فذلك من أقوال الكفّار، والمسلمون بجملتهم براءٌ من هذه المقالة ومن قائلها، وما أظنّ أنّ أحداً ممّن في بلاد المسلمين يرى هذا الرأي، ولا سمعناه من أحد إلى يومنا هذا.

وإن أُريد أنَّ المدعو والمستغاث به له اختيار وتصرّفٌ في أمر الله تعالى، فيحكم على الله، فهذا أشدّ كفراً من الأوّل.

وإنْ أُريد دعاؤه والاستغاثة به للدّعاء والشفاعة، أو من التصرّف في العبارة، كما تقول: يا رحمة الله، ويا بيت الله، ويا عبد الله، ولا تريد إلّا نداء الله ودعاءه، واستغاثته، فهذا من أعظم الطاعات، وفيه محافظة على الآداب من كلّ الجهات.

---

(١) ورد في النسخة المطبوعة: والله الملهم للسداد والصواب، فنقول: أمّا ما ذكرت من الإنكار على كثير من الناس الاستغاثة بغير الله ودعوة غير الله.

وكون الدُّعاء عبادة إنّما يجري في قسم منه، وهو الطلب من الخالق المدبّر الذي جلَّ شأنُهُ عن الأشباه والنظائر. ولو جعلت كلّ دعاء عبادة، للزم أنّ دعاء (زيد) لإصلاح بعض الأُمور، أو دفع بعض المحذور، وطلب الأفعال، كلّها من قبيل الكفر.

فالسؤال، والأزواج، والعبيد، والخُدّام في طلب المآكل والملابس مربوبون، ومقابلوهم أرباب، فيكون ذلك مكفّراً، وإن أقررت بالتخصيص خصّصناه بما ذكرناه.

وبيانُهُ: أنّ لفظ «الدُّعاء» لا يُراد به المعنى اللغوي، وإلّا لكفر جميع الخلق، فالمراد دعاء العبودية والمربوبيّة، كمن دعا الأصنام أو الصالحين، مع اعتقاد ربوبيّتهم، وقصد عبوديّتهم، مكتفين بها عن عبادة الله، أو مشركين أولئك مع الله لقصد وصول النفع إليهم منهم، وليقرّبوا إلى الله زُلفى.

وأمّا ما ذكرتَهُ من (النذر لغير الله تعالى) و(الذبح لغير الله)، وهذا أيضاً إن أُريد أنّهم يذبحون مُهلِّينَ باسم غير الله، أو ينذرون تعبّداً لغير الله. فذلك لم يصدر من أحد من المسلمين، وكلّ من فعل ذلك، فهم منه براء، سواء كان ذلك عبادةً لغير الله، أو كان لأجل أن يقرب إلى الله.

وأمّا لو كان من باب إهداء ثواب المذبوح والمنحور والمنذور إلى أولياء الله وعباده الصالحين، فهو من أعظم الطاعات، وأفضل القربات، وقد بيّنا ذلك في بعض المقامات.

قولك: إنّ ذلك حقيقة دين المشركين أعداء رسل ربّ العالمين، كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، فأخبر الله عنهم بذلك في كتابه المبين، حيث يقول وهو أصدق القائلين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[1] فأخبر الله أنّهم ما عبدوهم إلّا ليقرّبوهم إلى الله زلفى، وقال

(١) سورة يونس ١٠: ١٨.

سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[١].

فتأمّل كيف أخبر الله سبحانه عنهم أنّهم ما قصدوا بعبادتهم غير الله إلّا التقرّب إلى الله والشفاعة عنده، وإلّا فهم مُقِرُّون أنّ الله هو المدبِّر لأمر هذا العالم العلوي والسفلي، كما أخبر الله عنهم أنّهم أقرّوا بذلك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٢].

أقول: إنَّ لكلِّ حقّ حقيقة، وإنّ على كلّ صواب نوراً، إنَّ عبدة غير الله قد اتّخذوا آلهة دون الله تعالى أو مع الله وجعلوا لهم أنداداً وأمثالاً لله، قال الله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾[٣]، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّهِ أَندَاداً﴾[٤]، وقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾[٥]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[٦]، وقال: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[٧]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٨].

ثمّ المذمّة لم تكن على اعتقاد الشفاعة، أو التقرّب زلفى، بل على العبادة بهذا القصد، والمراد بالعبادة أعمال خاصّة كما بيّناه.

---

(١) سورة الزمر ٣٩: ٣.
(٢) سورة يونس ١٠: ٣١.
(٣) سورة المائدة ٥: ٧٦.
(٤) سورة البقرة ٢: ٢٢.
(٥) سورة الأنعام ٦: ١٠٠.
(٦) سورة المائدة ٥: ٧٣.
(٧) سورة المائدة ٥: ١١٦.
(٨) سورة الأنعام ٦: ١٩.

وقولك: «إنّ ذلك حقيقة دين المشركين، كقوم نوح وعاد وثمود» كيف ذلك، وقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾، إلى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾[١]. وأخبر عن قوم (عاد) أنّهم قالوا لهود: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾[٢]، وعن قوم صالح أنّهم قالوا له: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[٣]، وعن قوم شعيب أنّهم قالوا له: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[٤]، وعن قوم إبراهيم أنّهم كذّبوا الرُّسل؟

فهؤلاء الطوائف بصريح القرآن كذّبوا الرّسل، وردّوا قولهم، وعاندوهم، فلو كانوا مقرّبين؛ لكانوا كفّاراً لكفر العناد ككفر إبليس.

فيا أخي أقسمتُ عليك بمَنْ خَلَقَنا من تراب، ثمّ أودعنا الأصلاب أن تترك الجدال، وتتأمّل في حقيقة الحال، كيف تُشَبِّهُ أعمال المسلمين بأعمال عَبَدَة الأصنام وغيرها مع أنّهم أنكروا نبوّة الأنبياء، وردّوا عليهم بعد أن أمروهم، ولم يسمعوا لهم قولاً، ولا قبلوا لهم فعلاً؟!

ثمّ إنّهم عبدوا طواغيتهم بالعبادة الحقيقيّة؛ لاعتقاد أنّ لهم تصرّفاً في الأكوان، أو في إرضاء الملك الدّيان، وإلّا لم يذمّهم الرحمن، ولا أنكر عليهم كلّ فعل كان.

ثمّ تعلّلوا بأنّا لا نقدر على عبادة الله سبحانه، فنعبدهم ونكتفي بعبادتهم وهم يقرّبونا، كما أوردنا بذلك بعض الروايات في بعض المقامات.

وعلى كلّ حال، لا يتأمّل مسلم في أنّ العبادة الحقيقيّة من الصلاة والصيام

(١) سورة إبراهيم ١٤: ٩.
(٢) سورة هود ١١: ٥٣.
(٣) سورة هود ١١: ٦٢.
(٤) سورة هود ١١: ٧٨.

وغيرهما لا تكون لغير الله، فإن كان التصدّق عن الأولياء والذبح لهم والنذر لهم عبادة، فنحن عبيد آبائنا وأُمّهاتنا وأمواتنا الذين نتصدّق عنهم، أو ننذر لهم، ونذبح لهم.

وإن كان طلب الدُّعاء منهم وندبتهم على الدُّعاء والشفاعة كفراً، فعلى الإسلام السلام، فإنّه ليس في الوجود أحدٌ لا يلتمس الدُّعاء من إخوانه، أو يستغيث بهم في طلب نجاته، وإنّ دعاء المؤمن للمؤمن أسرع للإجابة؛ لأنّه دعاء بلسان لم يعص به.

فيا أخي، المقاصد متفاوتة، وإنّما الأعمال بالنيّات ولكلّ امرئٍ ما نوى[1]، فرُبّ كلمة ظاهرها الإسلام، تصير بالنيّة كلمة كفر، وبالعكس.

وأمّا قولك: فإنّ الذي يُفعلُ عندنا في مشهد عليّ عليه السلام من دعوة، واستغاثة، ورجاء، وخوف، وخشية. إنّه ليس بعبادة، فإنّهم ما قصدوا بدعوتهم (عليّاً) وغيره إلّا ليشفع لهم عند الله.

فإن قلت: أولئك يدعون الأصنام، ونحن لا ندعو إلّا الصالحين.

قلنا: وكذلك المشركون منهم يدعون الصالحين ويعبدونهم مع الله، كعيسى ومريم والملائكة.

فإن قلتم: إنّ الدعوة لا تُسمّى عبادة.

قلنا: بل هي عبادة وأيّ عبادة، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: الدُّعاء هو العبادة. ويلي قوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[2].

وأصل دين الإسلام هو إخلاص العبادة بجميع أنواعها من الذبح والدعوة، والنذر، والتوكّل، والخشية، والرغبة، والإنابة، ولا يقبل الله من الأعمال إلّا ما

(١) البخاري (بدء الوحي)، باب ١؛ وصحيح مسلم (كتاب الأمارة)، باب ١٥٥؛ والنسائي (كتاب الطهارة)، باب ٥٩؛ وابن ماجة (كتاب الزهد)، باب ٢٦.

(٢) سورة غافر ٤٠: ٦٠.

اجتمع فيه شرطان:

الأول: ألّا يعبد إلّا الله وحده.

الثاني: ألّا يعبد إلّا بما شرع على لسان رسوله، كما قال الله تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾[١].

أقول: إن كان المدار على الصور دون الحقائق، فسجود الملائكة لآدم، وسجود يعقوب ليوسف، قاضٍ بأنّهما عبدا غير الله.

وإن قلت: بأنّ تعلّق إرادة الشرع دفعت المنع. فقد أوردنا من الأخبار وكلام الصحابة ما يفيد عدم المنع، من أمثال الصور التي ذكرت.

ثمّ بالله عليك أنصفْ، ما الفرق بين قول الصديق لصاحبه في السجن: ﴿**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**﴾[٢] وبين قولنا لرسول الله ﷺ: «اذكرني عند ربّك»؟

ثمّ كيف باستغاثة ولي موسى[٣]، ولم يحكم عليه بالكفر؟! ثمّ كيف باستطعام موسى والخضر أهل القرية[٤]؟ ثمّ كيف يقول أصحاب موسىٰ: ﴿**لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ**﴾[٥]؟ ثمّ ما معنى قول الأسباط ليعقوب: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا**﴾ فقال: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾[٦]؟!

وعلى كلّ حال، إن أُريدت الحقائق في الاستغاثات والدعوات وغيرها، ففي ذلك خروج عن طريقة الإسلام، وإلّا فلا بأس، وإلّا للزم ألّا يخرج من الكفر أحدٌ

---

(١) سورة الكهف ١٨: ١١٠.

(٢) سورة يوسف ١٢: ٤٢.

(٣) إشارة إلى الآية ١٥ من سورة القصص: ﴿**فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه**﴾.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الكهف، الآية ٧٧: ﴿**فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أنْ يضيفوهما**﴾.

(٥) سورة البقرة ٢: ٦١.

(٦) سورة يوسف ١٢: ٩٧.

من العالم، ولا يمكنك والله ولا يسعك إلّا أن تقول إنّما يُراد دعاءٌ خاصّ، واستغاثة خاصّة ونحو ذلك، فيرتفع المحذور.

وأمّا مَنْ قصد حقيقة العبادة مع غير الله، ليتقرّب إلى الله زلفى، أو لغير ذلك، فهو خارج عن ربقة الإسلام.

وما ذكرتم من أنّا نفرّق بين الصالحين وغيرهم، فمعاذ الله أن نفرّق بين مَنْ يعبد موسى أو محمّداً ﷺ، أو يناديهم ويدعوهم، أو يستغيث بهم أحياءً وأمواتاً، ويلجأ إليهم على أنَّ لهم الأمر أو ليقرّبوه زلفى، وبين مَنْ يعبد فرعون، وهامان، وإبليس.

أين النفوس المقرونة بالأبدان التي تتغيّر من أدنى حوادث الزمان، ولا زالت مورداً للأمراض، ومحلّاً للأغراض، لا تدفع شيئاً من حوادث الدهر، وليس لها في كلّ الأمور من أمر من رتبة المعبود. ومن لا يصلح لغيره الركوع والسجود، إنّما هم عبيد زادت علينا عبوديتهم، وخدّام سبقت خدمتنا خدمتهم.

فإن أُمرنا بتقبيل بنائهم، أو تعظيم أبنائهم، أو التماس دعائهم، فعلنا امتثالاً لأمر ربّنا، كما صنعنا ذلك في أحجار الكعبة وأركانها. وإن نهانا تركنا، إذ لا خوف إلّا من الله، ولا رجاء إلّا له.

وأمّا قولك: إنّه قد ورد في الحديث عن الصادق الصدوق، قال: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة»[1].

وفي الحديث الثاني، قال: افترقت اليهود والنصارى عن اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأُمّة عن ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في النار إلّا واحدة. وسُئِلَ عن الواحدة، فقال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي[2] (انتهى).

(١) سنن الترمذي ٥: حديث ٢٦٧٦؛ وسنن أبي داود ٤: حديث ٤٦٠٧، وسنن ابن ماجة ١: حديث ٤٢.
(٢) كنز العمّال ١: ١٠٦٠.

أقول: اللّهمّ إنّي رضيتُ بسنّة الخلفاء الراشدين حكماً، وما عليه أصحاب محمّد متمسِّكاً وملتزماً، فأُحِلُّ ما أحلّوه، وأفعلُ ما فعلوه، وهذه أقوالهم وسيرتهم في هذه الرسالة أوضحتُها، فلا أزيغ عنها، ولا أبعد مسافةً منها، فتتبّع ما رويتُ من أخبارهم، وما نقلتُ من آثارهم، رزقني الله وإيّاكم حلاوة الإنصاف، وجنّبنا مرارة الجدال والاعتساف.

وأمّا قولك: «فلا تغترّ بالكثرة وهذا الثابت عن نبيّك، والله يقول: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾[١]، وقال: ﴿**إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**﴾[٢]. وفي الحديث: إنَّ بعث الجنّة من الألف واحد، فأنت اختر لنفسك، والمهدي من هداه الله»، انتهى.

أقول: يا أخي، الوصية مشتركة بيني وبينك، فالذي عَليَّ ألّا تأخذني حميّة الآباء والأجداد، وحبّ الطريقة المأنوسة بين العباد، بل أنظر بعين البصيرة وإخلاص السريرة.

وأمّا أنت فإنّي أخشى عليك من حبّ الانفراد، حتّى لا تكون كبعض الآحاد، فإنّ الأصابع لم تزل ممدودة إلى مَنْ ركب جادة غير معهودة، وقد ورد في المثل: (خالفْ تُعْرَفْ).

ثمّ إنّي ـ والله ـ أخشى عليك من جهة أنّك كنت خالي البال، بعيداً عن هذه المحال، فوردتْ عليك شبهاتٌ لم تستطع ردّها، وخيالاتٌ لم تبلغ حدَّها، فكان الحال كما قال: (صادف قلباً خالياً فتمكّنا)[٣].

وأمّا اليوم، فليس لك عند الله عذرٌ، فقد علمت بالأخبار، وسمعتَ بطريقة

---

(١) سورة سبأ ٣٤: ١٣.

(٢) سورة الأنعام ٦: ١١٦.

(٣) إشارة إلى قول القائل:

عرفتُ هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوى ... فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا

الخلفاء الأبرار، فأجدَّ نظرك، واستعمل فكرك، واخلع عن نفسك ربقة التقليد، واطلب من ربّك التأييد والتسديد.

ثمّ ما ذكرت إنّما يدلّ على أنّ الحقَّ مع القليل من المكلّفين لا من المسلمين، فإنّ أكثر أهل الأرض كفّار من يهود، ونصارى، ومشركين، وجاحدين، وغيرهم، حتّى أنّ نسبة اقليم المسلمين إلى سائر الأقاليم أقلُّ قليل.

فنحن نقول بأنّ مَن أطاع أكثر الخلق ضالّ، لأنّ أكثر الناس من أهل الكفر والضلال، وأنّ الشكور قليل، وأنّ بعث أهل الجنّة من الألف واحد، ولو استندت في هذا إلى حديث الفرق، فوحدة الفرقة لا تنافي زيادة أفرادها على ألف فرقة.

والحقّ أنّه لا ملازمة بين القلّة والكثرة، وبين الحقّ والباطل، فكم من قليل هُدي إلى الصواب، وكثير حلَّ عليه المؤاخذة والعقاب، وكم قد انعكس الأمر في هذا الباب، والمدار على طلب العصمة والنجاة من ربّ الأرباب، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

تمّت على يد أقلّ العباد عملاً، وأكثرهم زللاً محمّد قاسم ابن شيخ محمّد بن حمزة الدلبزي في سنة ألف ومائتين وعشرة.